الذاكرة المنسية!!

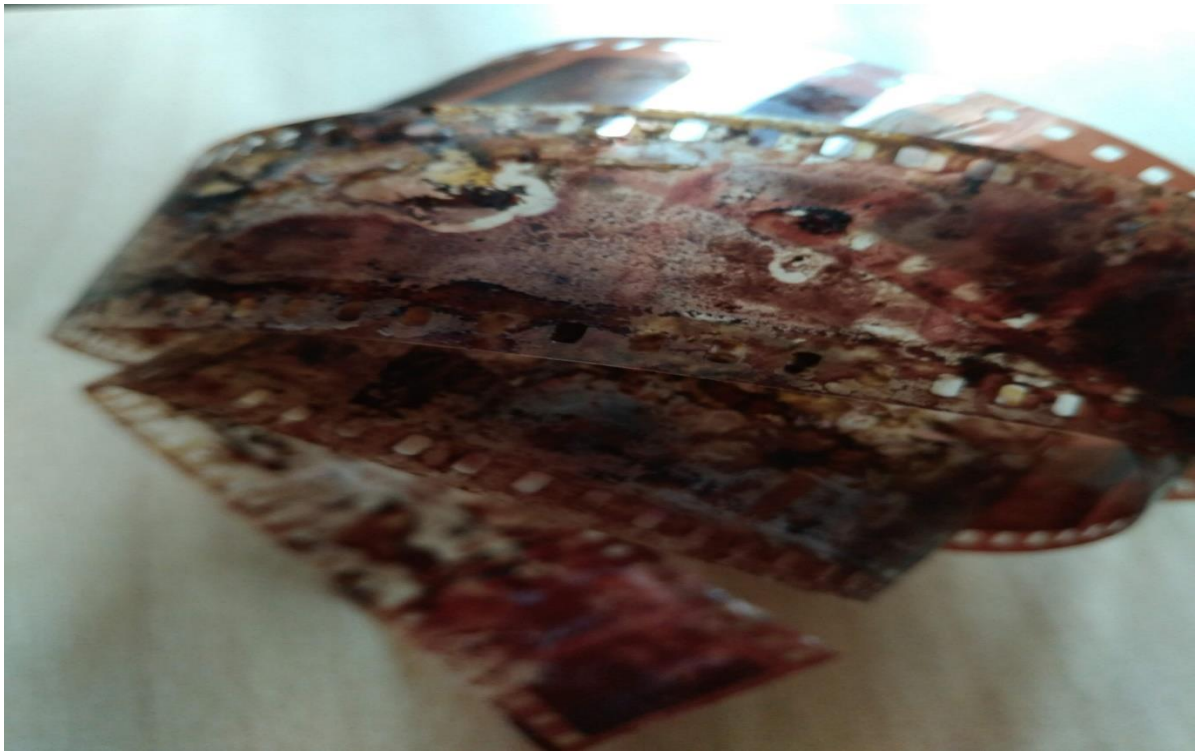

قاسم حول

لو تأملنا الحقب التاريخية وما وصلنا منها من التركات والذكريات، كي نتعرف على الحقائق في شقيها الإيجابي والسلبي، ولمعرفة الإنجازات، فإننا نسأل عن الوثيقة أولا، الوثيقة المكتوبة، المسموعة، والأهم، المصورة، ومنها نستدل على تلك الحقائق. ولعل الحقبة السومرية التي عرفنا منها أهم ملحمة ذات بعد درامي هي "ملحمة كلكامش"، والتي دونها السومريون قبل أكثر من سبعة آلاف عام على الألواح الطينية، دونت بالكتابة التي ابتكروها، والتي سميت "الكتابة المسمارية"، لأنها تشبه المسامير في شكلها. وكانت الرقم الطينية التي كانوا يكتبون عليها تمثل الحياة اليومية، بما يشبه الصحيفة اليومية التي شكلت مرجعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. كانوا يكتبون الوقائع على الطين ويتم شيها بالنار فتصبح صخوراً صلدة. هذه الرقم الطينية لم يعد منها، واظن حتى رقما واحداً.. ذلك ما عرفته بطريق الصدفة. كنت أعرف بأن الشخصية السياسية البريطانية المعروفة باسم "مسز بيل" التي تحكمت بالواقع العراقي في تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام 1920، قد نقلت كافة الرقم الطينية من العراق إلى بريطانيا، تلك التي عثرت عليها بعثات التنقيب والاستكشاف البريطانية. وهي الآن موجودة في المتحف البريطاني. ولكن في متحف آخر تحت المتحف البريطاني وبحجم مساحة المتحف الرسمي، وهو ليس المتحف المتاح للسائحين، إذ يمنع زيارته. كانت الرقم الطينية تسجل كل حدث. وكمثال، لو اشترى شخص كيلو من العنب من فلاح، فإن عملية البيع والشراء، تدون على تلك الرقم الطينية،

ومنها نعرف أحداث كل يوم قبل سبعة آلاف سنة. لا يوجد في العراق أي من الرقم الطينية الآن التي تقدر بعشرات الآلاف. طلبت زيارة هذا المتحف من خلال البروفسور العراقي "فاروق الراوي" الذي يعمل في ذلك المتحف، فاستغرقت إجراءات الموافقة لدخول المتحف ستة شهور، ووقعت على وثائق تحملني المسؤولية عن مخالفتي شروط العقد. ومنها كمية الإنارة المستعملة للتصوير وأعطوني فرصة التصوير لمدة ساعة واحدة من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة.

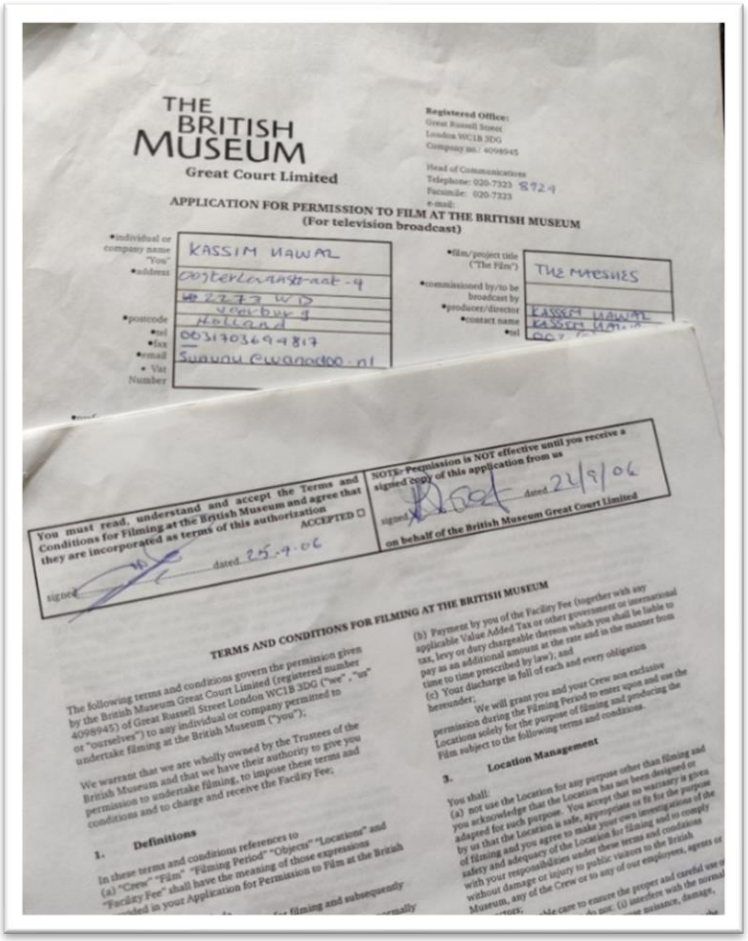

THE BRITISH MUSEUM
Great Court Limited

APPLICATION FOR PERMISSION TO FILM AT THE BRITISH MUSEUM
(For television broadcast)

KASSIM HAWAL
Oosterlaanstraat 9
2273 WD
Voorburg
Holland
0031703694817
Suawu.e@wanadoo.nl

THE MARSHES

You must read, understand and accept the Terms and Conditions for Filming at the British Museum and agree that they are incorporated as terms of this authorization
ACCEPTED ☐
dated 25.9.06

NOTE: Permission is NOT effective until you receive a signed copy of this application from us
dated 24/9/06
on behalf of the British Museum Great Court Limited

TERMS AND CONDITIONS FOR FILMING AT THE BRITISH MUSEUM

اسمي وتوقيعي مع توقيع مدير المتحف البريطاني على شروط التصوير

كان يعمل داخل المتحف البريطاني غير المسموح بزيارته، عدد من الأساتذة بدرجة "بروفسور" في فك رموز الرقم الطينية، التي كانت تكتب يوميا مثل أية صحيفة يومية. ومعهم البروفسور العراقي "فاروق الراوي" الذي يتقن اللغة السومرية!

لم يكن ثمة لبس في التاريخ السومري، ولم تكن ثمة وجهات نظر متباينة، بصدد الأحداث والتطور الحضاري السومري. فيما حقب لاحقة بعد آلاف السنين، لا تزال موضع خلاف معاصر ولبس، بسبب انعدام الوثيقة، سوى الوثيقة الشفاهية!

متى عرفت الكاميرا ومتى تحركت الصورة؟!

لقد تم اختراع أول كاميرا فوتوغراف على يد المخترع الفرنسي "لويس داجير" عام 1839، ولقد تحركت الصورة الثابتة على شاشة السينما، على يد الأخوين لومير عام 1895 ومنذ لك التاريخ أصبح الواقع مصوراً بالصورة المتحركة على شريط "السليويد" ومن ثم متزامنا مع الصوت عام 1923 هذا التاريخ هو بداية الزمن الموثق من خلال المجلات والجرائد السينمائية بالصورة والصوت، وهو بداية "السينما التسجيلية الوثائقية.

منذ تلك التاريخين "الصورة والصوت"، تجمعت في "مخازن" وزارات الثقافة العربية، ملايين الأمتار من الأشرطة السينمائية التي وثقت الواقع العربي، كانت مصر أكثر البلدان العربية تكديسا للأفلام في "مخازن" وزارة الثقافة، قياساً بمؤسسات السينما العربية، وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين بسبب حجم الإنتاج السينمائي الروائي والوثائقي. هذا إضافة إلى ما تصوره وكالات الأنباء "فيزنيوز" وغيرها.

لابد هنا من التمييز بين المكتبة السينمائية "السينماتيك" وبين "المكتبة الأرشيفية" التي تمثل ذاكرة الأحداث، وهي مجموعة ما يصور للجرائد السينمائية. فيما السينماتيك يمثل المكتبة السينمائية، ما ينتج من الأفلام الروائية والأفلام المتميزة التي تنتج عبر التاريخ السينمائي.

البلدان العربية في تأريخها الحديث، لم تكن متقاربة في نهجها السياسي، سيما وثمة تحولات وانقلابات في نظمها ما بين الملكية والإمارة والعسكرية والدكتاتورية العسكرية والديمقراطية الملتبسة، وأنظمة الأحزاب الشمولية. وهذه النظم المتباينة ومع الانقلابات السياسية والمتغيرات، تفرض بالضرورة أساليب الإنتاج الثقافية، فإنتاج الأفلام في سوريا والعراق وليبيا والنظام الحزبي الحاكم، يفرض الهيمنة على الإنتاج الثقافي شكلا ومضموناً، إذ لا يسمح للسينمائيين أن يعمدوا إلى تأسيس شركات إنتاج، سوى في حالات استثنائية، بينما في مصر لم تهيمن الدولة على الإنتاج، سوى في فترة قصيرة في الخمسينات – فترة التأميم الناصرية، وفشلت تجربة تأميم الثقافة، وعاد الإنتاج السينمائي في متناول السينمائيين وشركاتهم الإنتاجية، وكذا الحال في لبنان حيث الإنتاج في متناول السينمائيين، أما في بلدان المغرب العربي، فهناك شركات إنتاج أهلية تتلقى الدعم من الدولة، ضمن نظم مماثلة لأنظمة الثقافة الفرنسية.

كل دولة من هذه البلدان العربية حاولت الاحتفاظ بالوثيقة السينمائية المصورة، وجميعهم احتفظوا بها بطريقة بدائية، إذ لم تحقق الأرشفة النظامية للصورة والوثيقة السينمائية المصورة على فيلم "السليويد" بأشكالها "قياس 35 ملمتر، و16 ملمتر، السالب منه – النيكتيف، والموجب منه – البوزتيف، والفورمات الوسطية – "الإنترميديت" بشقيه الموجب والسالب"، لم تحقق شروط الحفظ التي تبقي الصورة محتفظة بنوعيتها، أو بنسبة عالية من نوعيتها.

هناك حالات "مزرية" تتعرض لها أهم الوثائق المصورة على الفيلم السينمائي في البلدان العربية، ولقد حاولت المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة – منظمة اليونسكو، أن تحصل على دعم لصندوقها من البلدان المشاركة، وتمنحها للمؤسسات الأرشيفية العربية والأفريقية، التي يهمها الاحتفاظ بتاريخ شعوبها وبلدانها. وزارات الثقافة العربية التي من المفترض، أن تكون هي المعنية بالمكتبات الأرشيفية لم تنجز هذه المهمة التي

تشكل إحدى أساسيات إستراتيجيتها الثقافية، وكثيراً ما تنسب حقيبة الثقافة وحقيبة الإعلام وحقيبة السياحة، لوزير واحد! ولذلك يأتي اهتمام الوزير بالوثيقة الأرشيفية بالدرجة ما بعد العاشرة أو بدرجة "اللامبالاة!"

الأفلام العراقية الوثائقية تحت الإنقاض

ولعل تجربتي في إنقاذ تاريخ العراق المصور سينمائياً، تعتبر الأهم بين تجارب العناية بالأرشيف المصور، سيما وأن العراق عاش أحداثا درامية مرعبة من الحروب والقمع الداخلي، ليست فقط الأحداث السياسية، بل انعكاساتها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي! حين عدت إلى العراق بعد سقوط النظام عام 2003 وجدت تاريخاً بأكمله تحت إنقاض البنايات والصخور والأتربة فأصبت بالفزع، إذ لا أحد يدرك خطورة هذا التلف لأن الأفلام السينمائية تصاب بالاضمحلال، إذا لم تحفظ بطريقة نظامية. وحتى علب حفظ الأفلام فإنها ذات مواصفات خاصة من البلاستيك وينبغي وجود منافذ، فتحات داخل العلب وممرات حين تنزف الأفلام مادة رطبة كما وينبغي حفظ السالب منها بخمس درجات تحت الصفر، فيما يحفظ الموجب بخمس درجات مئوية.

علب البلاستيك لحفظ الأفلام نظاميا

تمكنت من نقل الأفلام السالبة من البناية المنهارة إلى بناية أخرى بعيدة عن النهر كمنطقة رطبة، ولاحقا تمكنت من إقناع الدولة بتخصيص متحف تحفظ فيه الأفلام السالبة والموجبة. وهذه الخطوة ليست سوى مرحلة أولى، حيث طوال عشرات السنين، ترزح الأفلام في سراديب رطبة تحت سقوف مثقوبة ولا أحد يعرف حجم التلف التي تعرضت لها تلك الأفلام. الخطوة المنتظرة والصعبة هي ترميم تلك الأفلام بعد تنظيفها آلياً أو في الأقل يدويا، وفق وسائل التنظيف البدائية البسيطة في حال عدم توفر الأجهزة لغسيل الأفلام وتنشيفها.

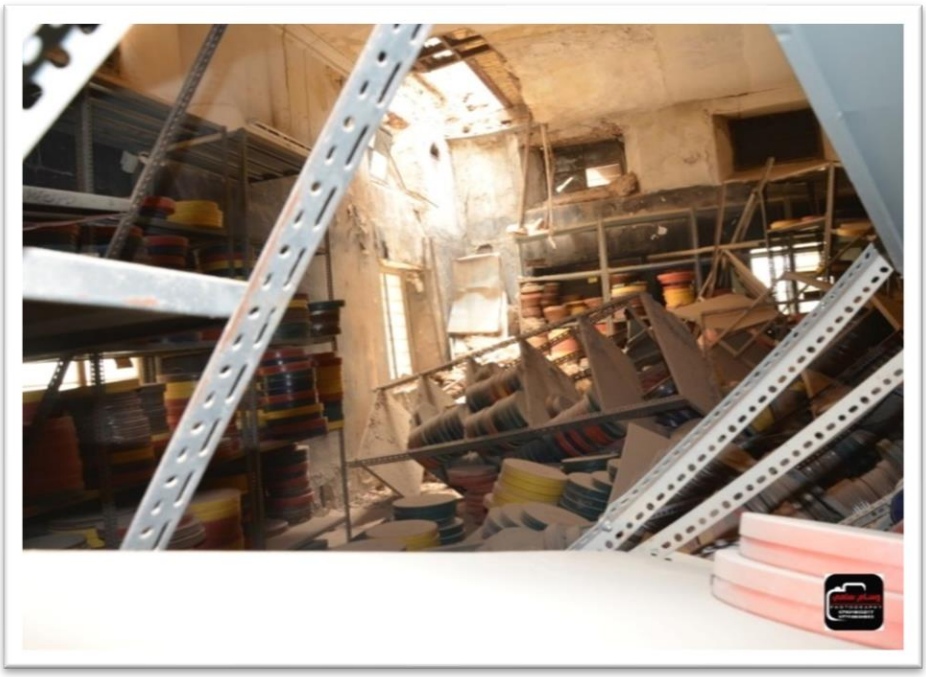

جانب من بناية على نهر دجلة قصفت وبقيت الأفلام السالبة لأكثر من عشر سنوات تحت الأنقاض

لم يكن حال العراق بأحسن من غيره.. فأغلب البلدان تعرضت لكوارث من الحروب، وأغلب البلدان حدثت فيها متغيرات سياسية بشكل درامي، وبسبب هذه الكوارث والانقلابات، لم تكن الوثائق الخطيرة المصورة تحظى باهتمام الحكومات ووزارات ثقافتها. لأنها لا تدرك معنى هوية الشعوب والبلدان التي يمثل التاريخ المصور ملامحها.

لقد خضت تجربة إنقاذ التاريخ، بعد أن أبلغت منظمة اليونسكو في العراق وطلبت الإشراف من المنظمة في كل خطوات النقل والترميم. وبعد أن قطعنا شوطاً في العملية التنظيمية، وحددت نوع الأجهزة الكفيلة بالترميم، وتدريب الفنيين على عمليات الترميم، تم اعتمادي خبيراً في منظمة اليونسكو لإتمام هذه المهمة.

السؤال العسير على الإجابة، عن كمية الأفلام الموجودة في سراديب غير نظامية في أغلب البلدان العربية والتي تمثل سجلا مرئيا وبالصوت لحقب تاريخية عربية، إذا لم تتوفر فيها شروط الأرشفة النظامية، فإن الصورة والصوت يضمحلان بالضرورة لحد الاختفاء. لم يعقد حتى الآن أي مؤتمر لدراسة هذه الظاهرة. وكان الأجدر بجامعة الدول العربية، أن تأخذ استراحة من بين اللقاءات السياسية المتباعدة، وتعطي فسحة من الوقت، لمناقشة موضوع التاريخ العربي المصور، وتحتفظ بها مرممة مع استخلاص نسخ وسطية ومن ثم نقلها على فورمات رقمية لتأمين الاحتياط، في حال سببت الحرائق المفتعلة أو حتى غير المفتعلة بإتلاف المواد التي صورت الأحداث في عموم المنطقة العربية، فتبقى الفورمات الرقمية صورة تمثل التاريخ العربي المصور والذي يمثل الهوية الثقافية للإنسان، والمجتمع العربي على حد سواء.

سينمائي وكاتب عراقي مقيم في هولندا